محاضرة رقم2

أثر الأزمات العلمية والمعرفية على الفلسفة المعاصرة

تمهيد:

عرفت الفلسفة الغربية المعاصرة كثير من التحولات العميقة، لا سيما أنها جاءت في ظروف مخصوصة، ميزتها حالة من القلق والارباك في السعي إلى صناعة عقل غربي يحمل هوية الفعالية، عندما اشتغل على تجديد الأدوات المعرفية والمنهجية في تناول مختلف الموضوعات التي طرحت اشكالات كبرى، سواء كانت على المستوى العلمي أو الفلسفي أو النفسي أو الاجتماعي والأيديولوجي والأخلاقي، هذا العقل الذي عكف على مراجعة مختلف الخلفيات التاريخية التي حكمت مساراته الميتافيزيقية، خصوصا بعد التحول اللافت من مفهوم الحداثة إلى تجليات ما بعد الحداثة، ووقوع العقل الغربي في أزمات متعددة الأوجه، فما طبيعة هذه الأزمات التي ميزت المشهد الفلسفي المعاصر؟

لقد كان الطرح الفلسفي المعاصر يتجه إلى عمق المشكلات المعرفية التي سارت عليها الثقافة الغربية وذلك بإقحام الفلسفة نفسها في مختلف الخلافات الفكرية القائمة كما كانت عليه في مرحلة التنوير، خصوصا عند استشعرت بأنها مهمشة تحت ايقاع التأثير العلمي وأن مهمتها قد تضاءلت بالفعل، ولذلك فهي تغدو في موقف متأزم وجدت نفسها مدفوعة للبحث عن أدلة جديدة لتبرير مشروعية وجودها .

لذلك جاءت التحولات الفكرية والتاريخية المتسارعة في ظل الأزمة التي عصفت بكيان الفلسفة ضمن المشروع الذي تم إعداده خلال فترة الانتقال من العصور الحديثة إلى مجريات المرحلة المعاصرة جعل الوراثة الإشكالية تنتقل بموضوعاتها وأفكارها بشكل مختلف عما كانت عليه في السابق، محدثة خلخلة قوية في وضع تصور نقدي لمنظومة المعرفة، وما نتج عنها في " مرحلة انقضاء القرن التاسع عشر وحلول القرن العشرين وقوع الفلسفة في أزمة. ولقد تمثلت أعراض تلك الأزمة في قيام حركات فلسفية جاءت مضادة لفلسفتي الذاتية والمادية – الآلية، وهما الفلسفتان اللتان اصطبغ بهما الفكر الحديث. ويلاحظ أن هذا التحول لم يقتصر على الميدان الفلسفي وحده، بل تعداه إلى غيره من المجالات الفكرية بحيث يمكن مقارنته بالأزمة الفكرية الكبرى التي جثمت على صدر الثقافة الأوروبية برمتها إبان عصر النهضة "[1].

لهذا كانت أسباب الأزمة ليست بعيدة عن الفضاء الاجتماعي الذي له صلة مباشرة بالتحول الجذري العميق الذي تناول الحياة الفكرية في معظمها، كما شكل تحولا فاصلاً في ميدان الفكر الفلسفي وميلاد تيارات علمية ووضعية وأخرى تحليلية. " والفلسفة التحليلية هذه

---

[1] – بوخنسكي: تاريخ الفلسفة المعاصرة في أوروبا، ترجمة محمد عبد الكريم الوافي، مكتبة الفرجاني، طرابلس، ليبيا، 1979، ص 40-41

تقوم على تحليل المدركات العقلية والقضايا وهي في هذا الصدد تولي عداء متزايد للفلسفات المثالية والميتافيزيقية، وهو عداء لقي تعبيراً كبيراً عنه في الفلسفة الواقعية الجديدة بصفة عامة والوضعية المنطقية أو التحليلية بصفة خاصة " [2].

كذلك يفسر هذا التحول المعرفي المستعجل، بأنه محكوم بأسباب موضوعية، ويكمن أساساً في محاولة الفلاسفة فهم النظام الذي يشتغل في ظله العقل الفلسفي، "وهذا ما نشهده في وقوع تحول قوي منذ ربع قرن لفلسفة اللغة تجاه فلسفة العقل (...) لأن فلاسفة اللغة لسنوات السبعينات أصبحوا فلاسفة العقل في سنوات الثمانينيات والتسعينيات (...) هذا التحول لم يكن بعيداً عن الفهم(...) فأصبحت اللغة تشكل الموضوع المركزي في فلسفة العقل "[1] .

لقد أصبحت العناية باللغة في الفلسفة التحليلية ضمن الأولويات التي يستدعيها البحث الفلسفي، وهذا لغرض فهمها وفهم الإشكاليات والموضوعات التي تتمحور حولها لا بوصفها وسيلة فحسب، بل بوصفها أيضاً غاية من غايات الاستقصاء العقلاني والفلسفي، وهذه النظرة يمكن اعتبارها عنصراً جديدا في النسيج الفكري للفلسفة التحليلية وخاصية من خصائصها الرئيسية، لذلك أدى هذا التحول الكبير في تغيير نمط التفلسف تحت تأثير هذه الدراسات اللغوية التي رسمت لنفسها طريقاً آخر للتوسل بأدوات التحليل المنطقي للغة، "لأن اللغة بالنسبة للفيلسوف تمثل حقيقة غامضة وفي الوقت ذاته هي واحداً من الموضوعات والأدوات الضرورية في تفكيره " [2] .

هذا السعي، يكشف عن وجود ارادة قوية في إعادة تشكيل الفلسفة بموضوعاتها واشكالياتها على نحو يحررها من يقينتها الدوغمائية وعقلانيتها الشكلية بترسيخ نقد عميق يتجه مباشرة إلى الأسس التي قامت عليها في تشييد البنيان المعرفي وتفكيك المكوّن الاشكالي الذي قامت عليه حين صاغت العلاقة بين الذات والفكر والحقيقة، والوجود واللغة.

كذلك هناك حدث فلسفي كبير شهدته الفلسفة المعاصرة، تمثل في تنامي الخطابات والنصوص التي غاصت كثيرا في البحث عن البنيات الفكرية والمنظومات المعرفية التي أنتجها العقل الفلسفي، مما منح مساحة كبيرة في توسيع دائرة الاشتغال بالمفهوم وتغيير طريقة التعامل مع المفاهيم الفلسفية وتمييزها عن المفاهيم العلمية، سمحت هذه الاستراتيجية ببناء منظومة معرفية صارمة في توجيه العمل الاستدلالي والمنهجي في تحصيل الحقيقة.

من هنا أصبحت الفلسفة المعاصرة تكشف عن الفاعلية الكامنة وراء انفتاح الفكر على ما ليس بفلسفة، بل على ما كان العقل الفلسفي يستبعده أو يحتقره ، فانفتح على وقائع الخطاب

---

[2] – فريدة غيوة: اتجاهات وشخصيات في الفلسفة المعاصرة، شركة دار الهدى عين مليلة، الجزائر، 2002، ص 121.

[1] - François Recanati: Philosophie du langage et de l’esprit, Editions Gallimard, Paris,2008, pp 9-10 .

[2]-G.G.Granger :Langages et Epistémologie, Editions Klincksieck, 197, p.9.

وأنساق العبارة والجنون والسجن والعلاقات الجنسية، وفوضى الأنظمة ، وهذا الانفتاح على اللامعقول والجسد والعلامة والصدفة وغيرها، أدى إلى قلب الرؤية إلى العالم، وهنا تغيرت علاقتنا بالأفكار والمقولات ومفهومنا للأشياء والكلمات والمضامين اللغوية وما يبطن بداخلها من معان.

ومن العلامات التي انتشرت بكثافة في الفلسفة المعاصرة، وهي أن المفكر المعاصر يرى الفكر بوصفه معايشة لا تنفك عن تشخيص علاقة المرء بجسده المقيم وسط كم كثيف من الهواجس والوساوس وحالات القلق التي تمس عمق حياته وتصوره للحقيقة التي لم تعد واحدة مستقرة في المخيال العام.